الفصل الثالث

# جوانب ناصيف اليازجي

## ١ ــ آثار ناصيف اليازجي

يبدو لنا من مطالعة آثاره أنه كان متضلعاً من علم العربية ، ملمّاً ببعض فنون عصره كالطب والموسيقى ، وقد حافظ على ذلك العلم كما اتصل به بجمعه جمع عارف خبير عالم ، يؤلفه أو يختصره بأسلوب عرف به وحده ، وهاك أسماء مؤلفاته :

### ١ ــ في الصرف والنحو

١ ــ « لمحة الطرف في أصول الصرف » : أرجوزة في سبع عشرة صفحة مشروحة بقلمه ألّفها سنة ١٨٥٤ مقتصراً فيها على ما تهم معرفته من هذا العلم ، طبعت في المطبعة المخلصية للروم الكاثوليك ببيروت سنة ١٨٧٠ .

٢ ــ « الجمانة في شرح الخزانة » : أرجوزة طويلة في علم الصرف علق عليها شرحاً ، سماه « الجمانة » جمع فيها مبادئ هذا الفن معتمداً في شروحه على كتب الأئمة ، مقتصراً على ما يحتمل وقوعه في الاستعمال دون الشوارد والمفروضات . طبعت في المطبعة المخلصية أولاً ثم في المطبعة الأميركية سنة ١٨٧٢ في مئة وأربعين صفحة ، ولها طبعة ثالثة تم طبعها مختصرة بقلم ابن المؤلف الشيخ إبراهيم اليازجي سنة ١٨٨٩ .

٣ ــ « طوق الحمامة » : وهو مختصر نثري يقع في عشرين صفحة صغيرة طبع في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥ .

٤ ــ « اللباب في أصول الإعراب » : أرجوزة تقع في ثمان وعشرين صفحة حوت مبادئ النحو مع الشرح طبعت سنة ١٨٨٩ .

٥ — « نار القرى فى شرح جوف الفرا » : أرجوزة مستفيضة الأبحاث النحوية ، ضمّ إليها ما تفرّق فى كتب أئمّة النحو ، خدم بها المتأدبين الآخذين بعلم العربية خدمة تذكر فتشكر ولا سيّما بالشرح الذى سماه « نار القرى » فقد جمع فيه دقائق النحو وأصول قواعده ، فهو أوّل كتاب عصرىّ صنّف فى موضوعه ، فرغ المؤلّف من تبييضه سنة ١٨٦١ وطبع فى بيروت سنة ١٨٦٣ فى ٣٨٩ صفحة متوسطة الحجم ، ثم اختصره ولده الشيخ إبراهيم سنة ١٨٨٢ فى ٢٩٦ صفحة وأعرب شواهده المعلم شاهين عطية سماه « الدرر فى عقود الجوهر » .

٦ — « الجوهر الفرد » : موجز وضعه للطلبة الأصاغر فى خمس عشرة صفحة صغيرة الحجم طبع فى المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥ ثم شرحه ابنه الشيخ إبراهيم وطبعه فى بيروت سنة ١٨٨٨ بعنوان « مطالع السعد فى شرح الجوهر الفرد » ، وقد اختصرت فيه القواعد العربية فى الصرف والنحو اختصاراً لا يمكن أن يختصر بأكثر من ذلك .

٧ — « فصل الخطاب فى أصول لغة الأعراب » : كتاب نثرىّ قسمه قسمين ، كتاب التصريف وكتاب النحو طبع فى بيروت سنة ١٨٥٤ فى ١٢٤ صفحة صغيرة وأضاف إلى شرحه بعض زيادات وطبع سنة ١٨٦٦ فى ٢٥٧ صفحة ، ثم طبع سنة ١٨٧٧ فى المطبعة الأميركية ، وآخر طبعة له كانت فى المطبعة المذكورة وفى مكتبة وديع سركيس سنة ١٩٢٥ .

واشتغل أيضاً بتنقيح كتاب « بحث المطالب » تأليف المطران جرمانوس فرحات[1] ، فتولى ضبطه بنفسه ونسخه بقلمه جارياً فيه مجرى الأوجه الصحيحة فى كلّ مسألة .

ب — فى البيان والبلاغة والعروض

١ — « عقد الجمان » : جمع خلاصة المعانى والبيان بين متن وشرح وألحق به بحثاً هو « نقطة الدائرة » فى العروض والقافية . أنهاه سنة ١٨٤٨ وله طبعات

(١) مجلة « الجنان » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٩٠ — ١٩١ .

متعددة فى المطبعة الأميركية ببيروت باسم : « عقد الجمان » وطوراً باسم « مجموع الأدب فى فنون العرب » طبع سنة ١٩٠٨ ويتراوح عدد صفحاته بين ٢١٤ و ٢١٦ صفحة وآخر طبعة له كانت فى المطبعة الأميركية أيضاً سنة ١٩٣٢ وهى الطبعة التاسعة رتّبها على نمط جديد مدمجاً المتن فى الشرح ، لبيب جريديني .

٢ — « اللامعة فى شرح الجامعة » : أرجوزة فى علمَى العروض والقوافى تقع فى ١٢٧ صفحة صغيرة الحجم أنهاها سنة ١٨٥٣ وشرحها ولده الشيخ حبيب وسمّى الشرح « اللامعة » طبعت فى بيروت سنة ١٨٦٩.

٣ — « الطراز المعلم » : أرجوزة مختصرة فى البيان تقع فى ٣٥ صفحة جمع فيها نظماً وشرحاً المبادئ المهمّة فى البيان ، وفرغ من تبييضها سنة ١٨٦١ ، طبعت فى المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٨.

### ﻫ — فى المنطق

١ — « قطب الصناعة فى أصول المنطق » : رسالة نثرية تقع فى سبع وثلاثين صفحة صغيرة الحجم ، اقتصر فيها على المبادئ المهمّة فى أنواع القضايا وضروب القياس ، فرغ منها سنة ١٨٥٧ طبع أربع مرّات فى بيروت فى المطبعة الأميركية ، الطبعة الأولى سنة ١٨٥٧ والطبعة الأخيرة سنة ١٩١٣ .

٢ — « التذكرة فى أصول المنطق » : أرجوزة صغيرة جعل فى صلبها أركان المنطق ، ألحقت برسالة « قطب الصناعة » فألفت خمسين صفحة من الحجم الصغير .

### د — فى الطب

١ — « الحجر الكريم فى الطب القديم » : أرجوزة تتألف من أربعة وثمانين بيتاً من الرجز نشرت فى مجلة « الطبيب » لبوست والبارودى فى العدد الرابع عشر سنة ١٩٠٢ ص ١٢٥ وص ١٥١ ، وله أيضاً المقامة الطبية فى مجمع البحرين وهى المقامة الثلاثون[1] .

---

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

**هـ ــ الدواوين الشعرية**

١ ــ « نبذة من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي » : ولها طبعتان، الأولى في بيروت سنة ١٨٥٣ وتقع في ١٢٨ صفحة متوسطة الحجم، والطبعة الثانية في المطبعة الشرقية في حدث بيروت بعنوان « النبذة الأولى » مصححة بقلم ولده الشيخ إبرهيم ومصدرة بترجمة حياة الناظم بقلم سبطه الشيخ أمين الحداد سنة ١٩٠٤ .

٢ ــ « نفحة الريحان » : ولها طبعتان: الأولى في المطبعة العمومية في بيروت سنة ١٨٦٤ وتقع في ١٣٨ صفحة متوسطة الحجم ، والطبعة الثانية في المطبعة الأدبية سنة ١٨٩٨ مصححة بقلم ولده الشيخ إبرهيم .

٣ ــ « ثالث القمرين » : وله طبعتان: واحدة في بيروت سنة ١٨٨٣ وقد أضيفت إليه التواريخ الشعرية . والطبعة الثانية في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٩٠٣ مصحّحة بقلم ولده الشيخ إبراهيم ، ويقع في ١٤٦ صفحة .

٤ ــ نُشر له على حدة : « نبذة تواريخ مقتطفة من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي » طبعت في بيروت سنة ١٨٥٩ في ست عشرة صفحة .

٥ ــ « فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء » : مجموعة قصائد دارت بين الشيخ ناصيف وأدباء عصره ، ولها طبعتان : الأولى في بيروت سنة ١٨٧٠، والثانية في بيروت ، مطبعة مكتبة صادر سنة ١٩٣٠ .

ويقول سليم دياب[1] : « قد عنيت باستقصائها ــ أي فاكهة الندماء ــ فوجدت شيئاً كثيراً من رسائل نثرية وشعرية أغفلت في الطبع فجمعتها عندي وسأترقب الفرصة لنشرها إن شاء الله » على أنه لم يفعل ذلك ولم يقع لنا شيء مما وعد به .

٦ ــ وله خطاب ممتع في علوم العرب ، تعرّض به إلى المعارف الأولية عندهم في العهد الجاهلي متقدّماً به إلى ما بعد الإسلام عصر التدوين والعلم[2] نشر سنة ١٨٥٢ .

---

(١) مجلة « الجنان » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٥٢ .

(٢) اطلبه في أعمال الجمعية السورية . الكراس السادس ص ٤١ ــ ٤٣ .

### و ـ الأدب

١ ـ « مجمع البحرين » : كتاب مقامات نسج فيها على منوال مقامات بديع الزمان الهمذانى والحريرى .

## ٢ ـ عبقرية ناصيف اليازجى

ما من شك فى أن صاحب هذه المؤلفات المختلفة المتنوعة عبقرى من العباقرة، دفعه روحه الوثّاب وحبّ التجلية والتبريز إلى أن يكون الأديب الفحل والشاعر المطبوع والعالم المتمكن .

### ا ـ ناصيف اليازجى الأديب

ذهب الشيخ ناصيف فى إنشائه مذهب أهل العصر . فنجد السجع متوافراً فى كتاباته ، وخير مثال على ذلك كتابه المعروف « مجمع البحرين » وقد جرى فيه على أسلوب بديع الزمان الهمذانى والحريرى ، وكان الداعى إلى وضع هذا الكتاب ، إعجاب أدباء العصر بمقامته العقيقيّة[١] التى عرضها على الجمعية السورية كما ألمعنا إلى ذلك، فأنشأ ستين مقامة ونسب روايتها إلى سهيل بن عبّاد وبطولتها إلى ميمون بن خزام، وهما اسمان وهميان ، وقد ضمّن تلك المقامات كثيراً من الفنون الأدبية ولا سيما معجزات البديع . ومن دراسة « مجمع البحرين » نتعرّف إلى أسلوب الشيخ الكتابى وإلى مقدرته اللغويّة وسعة اطلاعه ووقوفه على تاريخ العرب وآدابهم وأمثالهم وأيامهم ، وغريب اللغة ، ولا تخلو مقامة من مقاماته من أمثال يضمّنها المقامة ثم يشرحها شرحاً مشبعاً ، لا يترك فيه زيادة لمستزيد كما فى المقامة النجديّة[٢] فقد أورد فيها أشياء من غريب اللغة وقديمها . وتناول فى غيرها الموضوعات الاجتماعية وغيرها من أنواع العلوم كالبديع على أنواعه .

---

(١ و ٢) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

فلا عجب إن نحن رأينا اليازجى يقدّم لنا فى كتابه « مجمع البحرين » نموذجاً عن الفكرة الأدبية التى كانت تسود عصره ، وقد مثلها بما خلّف لنا من الآثار الأدبية أحسن تمثيل ، فبعث فى العصر نهضة أدبية فاختصر القواعد العربية بكتب تدريسية ، لم يتكلف فى عبارتها ، ولا تطالبنى بضرب الأمثال فخذ أىّ كتاب شئت من كتبه المدرسية مثل : « كتاب مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » أو كتاب « فصل الخطاب فى اللغة والإعراب » أو كتاب « عقد الجمان فى المعانى والبيان » وانظر إليهما نظرة ناقد منصف وعارف خبير وقل لى ، أترى عبارة أوجز منها وأسهل ، وقد راجت فى المدارس ولمّا تزل إلى يومنا هذا تُدَرّس فى بعضها . وما يدلنا على مقام اليازجى فى عصره ، إقبال أدباء العصر على مطالعة كتابه « مجمع البحرين » فقد أجلّه أكابر العلماء والأدباء وقرّظوه واستعظموه لما راعهم من بلاغته ففضّلوه على مقامات غيره وكان فى جملة من قرّظه السيد حسين بيهم من أعيان بيروت قال مؤرّخاً :

هذا كتاب فريـدٌ فى محاسنه ... نظير صائغه يزهو به الأدبُ
لو كان فى الزمن الماضى لحج له ... على الضوامر عجم الناس والعربُ
كأنّه روضة غنّاء تتحف مَن ... يؤمها بثمار دونهـا الضّربُ
أوصافه الغُرُّ قد قالت مؤرخة ... الدرُّ من «مجمع البحرين» يكتسبُ

وقال الشيخ شهاب الدين العلوى الموصلى من قصيدة :

أشعارها[1] الأصمعى لو كان ينشدها ... بمثلها قال أذن الدهر ما سمعت
ثم الحريرىّ أحـرى لو يقاومهـا ... بأن يقول مقاماتى قد اتضعت

وإن نحن نظرنا إلى آخر صفحات « مجمع البحرين » نظفر بجملة صالحة من التقاريظ التى قالها أصحابها معجبين بما أنشأه الشيخ : ونختم ببيتين قالهما أسعد طراد :

لله درّ اليـازجىّ فإنـه ... بحـرٌ يفوق على جميع الأبحر
وإذا سألتَ عن الجواهر تلتقى ... فى «مجمع البحرين» كنز الجوهر

وعلى الجملة فإنه أنيق الإنشاء منتخب الألفاظ ، قد رفع مستوى الإنشاء من درجة الركاكة والانحطاط ، إلى طبقة الفصحى ، فكان الممهّد إلى ذلك

(١) الضمير « بأشعارها » يعود على المقامات وهكذا فى « يقاومها » من البيت الثانى .

بما وضعه من كتب دراسية وما نشره أو بثّه فى أفئدة طلابه وأصدقائه .

وكتابه « مجمع البحرين » لا تخلو مقامة من مقاماته من أمثال يضمّنها المقامة ثم يشرحها شرحاً مشبعاً ، لا يترك فيه زيادة لمستزيد كما فى المقامة النجدية وقد أورد فيها كثيراً من غريب اللغة وقديمها[١] .

وقد تناول فى مقاماته أيضاً كثيراً من الموضوعات الاجتماعية كما فى المقامة الحجازية[٢] وضمنها دعوى الخزامىّ فى أنه خطب لابنه واحتياله بتحصيل المهر ، وكالمقامة العقيقيّة ومنها يظهر لنا ميل الشيخ الدينى وإعراضه عن حطام الدنيا. ولعلّ هذه الأبيات تمثّل لنا المقامة بتمامها :

« واهاً لمن خاف الإله واتقى ... وعاف مشترى الضلال بالهدى
وظــلّ ينهى نفسه عن الهوى ... إنّ إلى الربّ الكريم المنتهى
"وليس للإنسان إلا ما سعى ... نعم وإن سعيه سوف يُرى"
ما هذه الدنيا سوى طيف كرى ... فانتبهــوا يا غافلين للسّرى
وشمّروا الذيل وبادروا الوحى ... من قبل أن يدعوكم داعى الردى
واطّرحــوا كلّ نعيم وغــنى ... واستهــدفوا لوقع أسهم البــلى
وأقرضــوا الله فنعم مَن وفى ... ما أجهل الناس وأذهــل النهى
لو أنّ هذا المال فى هذا الورى ... قال : ألستُ ربكم ؟ قالوا : بلى

ولما فرغ من أبياته زفر زفرة الضرام ، وقال : « كلّ من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ونجدُ فى مقاماته المواضيع النحوية كما فى المقامة الكوفيّة والمقامة الدمشقية والبغدادية ، ونجد أيضاً أنواع البديع كما فى المقامة الأزهرية والمقامة الرملية[٣] ، وكذلك العروض فى المقامة العراقية ، كما أنه تناول فى مقاماته هذه الطب والفلك فذكر فى المقامة الطبية[٤] خطبة فى الطبّ ووصيّة فى حفظ الصحة وأورد مسائل طبية، وفى المقامة الفلكية ذكر الكواكب السيارة

---

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٢) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٣) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٤) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

والبروج والمنازل وغير ذلك من متعلقات علم الفلك وأما ما تناوله من فنّ البديع فالجناس العاطل كقوله فى المقامة الرملية :

الحمـــد لله الصمـــد حال السرور والكمد
الله لا إلـــه إلا الله مولاك الأحـــد
لا أم لله ولا والـــد لا ولا ولـــد
أوّل كـــلّ أوّل أصل الأصول والمدد

وهى قصيدة تبلغ ستة وعشرين بيتاً ثم يردف ذلك بالأبيات المعجمة أى المنقطة وهو غير الجناس العاطل كقوله :

بشجيّ يبيت فى شجنٍ فـــتنٌ ينتشين فى فتنِ
شيّق نيّـــق تجنّب فى نفق ضيّـــق بق فغنّى

وهى عشرة أبيات، ثم ينتقل إلى نوع آخر هو الملمّع، وهى التى شطر منها مهمل من النقط وشطر معجم :

أسمر كالرمح له عامل يُغضى فيقضى نخبٌ شيّقٌ
مسك لماهُ عاطر ساطعٌ فى جنّة تشقى شج ينشقُ

وفى هذا النوع تسعة أبيات، وينتقل منها إلى الأبيات الخيفاء وهى كلمة منقوطة وأخرى عاطلة :

ظبيـــة أدماء تغنى الأملا خيّبت كل شجيٍّ سألا
لا تفى العهـــد فتشفينى ولا تنجـــز الوعد فتشفى العللا
غضّة العـــود تثنت مرحـــاً بضّة اللمس تجنّت مَللا

وهى عشرة أبيات يجرى فى نظمها هذا المجرى، ثم يتقدّم إلى الأبيات الرقطاء، وهى ما كان النظم فيها بحرف مهمل وحرف معجم وهذا نموذج منها :

ونـــديم بات عندى لـــيلة منـــه غليلُ
خاف من صُنع جميل قلتُ لى صـــبر جميل

وهى سبعة أبيات يختمها بقوله :

قاتـــلى وجـــهٌ بديعٌ زاجـــرى عنه قليـــل

وبعد أن يفرغ من نظم تلك الأنواع يعمد إلى نظم أربعة أبيات فى عاطل العاطل لم يسمع غيرها فى أشعار العرب وهى :

حولَ درّ حَلّ وَرْدٌ هــل له للحرّ وردُ
لحصــور حلــو وصل وردُهُ للصَّحْــو طردُ
وَله صَوْلٌ وطــوْلٌ وله صــدّ وردُ
دهــرُه حَرٌّ صدور هــل له لله حدّ

فمن النماذج التى عرضناها تلمّسنا شيئاً عن مقدرة الشيخ اللغويّة وتلاعبه بالألفاظ العربيّة واستخدامها فى غاية بيانية، قلّ أن تتأتى إلا لمن ملك ناصية البيان وانقادت له اللغة انقياد المهر الرضيع إلى أمه .

وبالإضافة إلى ما تقدّم نرى له فى البديع أيضاً ، ضرب ما لا يستحيل بالانعكاس أودعها المقامة البصرية[1] وعدد الأبيات فيها أربعة عشر بيتاً قال :

قمــرٌ يفرط عمــداً مشرق رشٌ مــاءٌ دمع طرف يرمق

وفى ختامها :

قــلّ طعم دونه رُدّ بــكم كبــدٌ رهنٌ ودمعٌ طلقُ

وله فى المقامة نفسها بيتان طردهما مدح وعكسهما هجاء وهما :

باهي المراحم لابسٌ كرمــاً قدير مســندُ
باب لكــلّ مؤمّــل غنم لعمــرك مُــرفدُ

وعكسها :

دنسٌ مريــد قامــرٌ كسب المحــارم لايهاب
دفــرٌ مكــرّ معلم نغل مؤمل كلّ باب

فنحن نرى : أن ذلك لا يكون بمقدور كلّ شاعر إن لم يكن قد ضرب بسهم وافر من معرفة اللغة وأسرارها ، وقد يرى أبناء هذا الجيل أن فى عمل الشيخ مضيعة للوقت فى شىء لا تُرجى منه فائدة ولا يُفاد العلم منه بشىء .

ولكن رويدك يا هذا ولا تعجل بالحكم ، وتريث قليلا وانظر بعين المنصف العادل إلى زمن الشيخ ، ذلك الزمن الذى بُعث من دركة الانحطاط ، فلا علوم

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

ولا مدارس ولا جامعات ولا تخصص ، وانبعاث القرن التاسع عشر ما انقطع عما تسرب إليه من عصر انحطاط اللغة وقد كثرت المحسّنات اللفظية فى النظم فقلّ أن تقع على شاعر فيه لا ترى له جولات فى أنواع البديع ، وكان الأدب العربى إلى مطلع القرن العشرين لا يخلو من ذلك ألبتة وكان لزاماً على الأديب أن يُلم بتلك الأنواع البديعية ، فلا عجب إن نحن رأينا الشيخ يقدم لنا فى كتابه « مجمع البحرين » نموذجاً عن الأدب الذى كان يهيمن فى عصره .

**ب — ناصيف اليازجى الشاعر**

من مراجعة الأصول التى بين أيدينا نرى أن أوّل ما نظمه من فنون الشعر هو المعنّى[1] وذلك قبل أن يأخذ بدراسة العروض وإليك مقطعاً مما نظم قال :

شابهت بدر النور بالخلقه  لمّن لبست الجبة الزرقا
أنت القمر والبدر يا غندور  لكن منّين للبدر هالمشقه

دور

أنت القمر والبدر يا غندور  بالطابع المسعد وفيض النور
برجلك بقلبى لم يزل معمور
خيمت فى شرقيه ، حتى انشغل قبليه ، وأنت الخبأ فيه ،
هذا السبب غرقان ها لغرقه .

ومن هذه القصيدة التى تبلغ نحو خمسة مقاطع من الشعر العامىّ نعرف شيئاً من خياله وانطباعه على النظم بدون كدّ ذهن وانقداح قريحة متعبة ، يبدو هذا من تساوق الألفاظ وخفتها وأخذ بعضها برقاب بعضها الآخر فلا نجد فيها ما ينفر منه السمع أو تنقبض منه النفس .

وأنتقل الآن إلى رياض الشعر فنستشف شيئاً من أغاريد الشيخ ، وقبل الشروع بذلك أقسم شعره أربعة أقسام هى :

١ — منظومات الصبا وفيها الغزل والتشبيب
٢ — المدح والرثاء

---

(١) المعنى ضرب من الزجل : قال المحبى فى خلاصة الأثر : الزجل فى اللغة الصوت وسمى زجلا لأنه يلتذ به وتفهم مقاطيع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى ويصوت .

٣ ــ الشعر الدينى
٤ ــ الحكم والتاريخ

لقد وضع الشيخ نصب عينيه هذا القول :

أجلّ الشعر ما فى البيت منــه غرابة نكتة أو نوع لطف[١]

فى كلّ ما نظم وأحسّ به ، فلا نكاد نقرأ له بيتاً من الشعر إلا رأينا فيه نكتة أو حكمة أو مثلا سائراً، فقد كان حاضر القريحة ينظم بضعة عشر بيتاً على نَفَس واحد فى يقظته وبضعة أبيات فى منامه، فيحفظها فى ذهنه ويكتبها دفعة واحدة كما رأينا ، وقد تناول جميع أبواب الشعر المعروفة فنظم فيها . ومن أقواله المشهورة « كأنى قاعد فى قلب المتنبى » ويقصد بذلك أنه كان يدرى ويروى شعر المتنبى وكان إمامه فى الشعر يتتبع حسناته ويتنكّب عن سيئاته ، ومن قراءة شعره نرى أثر المتنبى ظاهراً فى كثير من نظمه واحتذائه المطالع وتتبع الأقوال الحكميّة والأوصاف الرائعة .

وإلى جانب هذا كله نحسّ ونحن نقرؤه أن فيه سلاسة وسهولة ، فلا نحتاج إلى كدّ ذهن لاستيعاب القول ، ولا نقدر أن نجزم بتأثره بالمتنبى فقط بل تأثر بغيره كأبى تمام والبحترى وابن المعتز . وتأثر أيضاً بشعراء عصر الانحطاط فقد حاول أن يعارض كثيراً من معجزات صفى الدين الحلى ، فى تتبعه أنواع البديع والمحسنات اللفظية والتلاعب بها ، ويكثر من التوجيه فى الأوضاع النحوية والصرفية والبيانية والعروضية وهى علومه التى امتاز بها . فمن توجيهاته قوله :

وقطّبتْ عند زجر الصبّ حاجبها لأنها تعهد التأكيد بالنّون

وقوله :

ما زلتُ مستنــداً إليك محدّثاً فكأننى خبرٌ وأنت المبتدا

ولندع الآن هذا الضرب ونتقدّم إلى شعره الغزلى ، وإن أنا قلت شعر الغزل ، فلا تنتظر منى أن أحدثك عن شاعر رمزىّ كبعض شعراء عصرنا ، ولا تطلب منى أن أعرض أمامك شاعراً تثقّف بثقافة الغرب فعرف الخيال ومطارحه البعيدة ، فحلق فى سمائه ليستلهم ربّة الشعر فتوحى إليه ما يطرب ويرقص ويستفزّ

(١) رواية عيسى إسكندر المعلوف .

العاطفة الكامنة ، فينتقل بك من أديم الأرض إلى السموات العلا بفكرٍ مجنح وروح تترقرق طيّ الهواء ، وروعة أخاذة ، تصل بك إلى فردوس الشاعر المبدع الذى يبعث فيك شعوراً ، ما كنت تحلم به من قبل ، فإما أن يُسرّك ويطربك وإما أن يبكيك ، وإما أن يجعلك حيث لا تدرى ولا تعى بقولٍ هو السحر الحلال .

ولكنى سأتحدث إليك عن شاعر القرن التاسع عشر وهو مطلع النهضة الحديثة ، وعلينا أن نكون منصفين فنحصر القول فى القرن نفسه ، ولا نتعداه إلى غيره ، وقد عرفنا شيئاً عن عصر الانحطاط ، وعرفنا شيئاً عما كان فيه من علم وأدب ، ودعنى ألفت نظرك إلى دواوين الشعراء فنجد أن الغزل هو أول ما نظموه ، فالشعر ثمرة من ثمار الحب ، ولولا سحر الحبّ ما ترنمت القلوب بشعرٍ ولاطربت لنغم ، ولا ابتسمت ابتسامة الحقل لأزاهر الربيع . والشيخ ناصيف واحدٌ من أولئك الذين فتح الحبّ قرارة نفوسهم قال :

من غنج عينيك أم من لطف معناك ... أيدى الهوى أوقعت قلبى بأشراكِ [1]
يا ظبيـة فى النقـا ترعى الخزام به ... لم تعلمى أن عين الصبّ ترعاكِ
روحى فداك لقد أضنى هواك فتى ... ما كان يدرى الهوى والله لولاكِ
وردٌ بخدّيك أم هذا خضاب دمى ... فقد أراقت دمى بالسحر عيناكِ

وأنت تعلم جيداً أن الشاعر هنا لم يأت بمعنى جديد مبتكر فهو فى القصيدة كلها ما خرج عن الظبية والخزام والورد والعذاب والهوى ، فلا تطلب منه أكثر من ذلك بالنسبة للسنّ والعصر . أما العصر فقد عرفناه ، وأما السنّ فنعرفه إذا تدبرنا القصيدة ورأينا فيها الغيرة التى تكتنف الشاب والتضحية فى سبيل الحبّ مما لا يكون إلا لبافع لم يدرج عن الطوق بعد :

إنى لقد غرتُ من ذكر عليك جرى ... ومن لحاظ رسولى حين يلقاكِ

والآن أنتقل بك إلى قصيدة نلمس بها تأثر الشيخ بعنترة قال :

أتظن هذا الخالَ فوق المبسم ... إلا عبيـداً حارساً دُرّ الفم
وتظنّ هـذا الدرّ درّاً حـوله ... مـاءٌ كماء البحر مثل العلقم
لا والـذى خلق الميـاه فما به ... إلا رضاب كوثرىّ المطعم

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

ومنهـــا :

حتى دخلت الـــدار ساعة غفلة وعرفت ربع الدار بعد توهم

* * *

وأجـــلّه عن أن أقول بأنه شهد جنته النحل لا يروى الظمى
ألوى علىّ فضمنى وضممته وصـــدورنا بصدورنا لم تعلم
أهوى عليـــه وفىّ عفّة يوسف حـــتى يميل وفيه عفـــة مريم
فيروح بين صبابتى وحنينـــه وأروح بين حديثـــه وتبسّمى

ونرى أن هذه القصيدة وإن كانت غزلا فهى تحمل ضمن أبياتها رزانة يوسف وعفّة مريم، وهو وإن حمّل ريح الصبا سلامه فلا يجرؤ أن يلثم أو يقبّل إن وقع فى صدرها بل نراه ينفى الشىء بإيجابه :

بالله يا ريح الصبا قبل الضحى إن جئتِ هاتيك الديار فسلّمى
قسما بهـــا إلا وقعتِ بصدرها بين النهود ولا أقول لك اثثى[1]

فأنت ترى أن الشيخ قد جارى الشعراء فنظم غزلا مهذباً جرى فيه كما ترى مجرى الرزانة والتحفظ وتظهر لنا نفسيته فى باب الرثاء ولا سيما فى رثاء والده حبيب كما سترى فى المنتخبات .

### حـ ــ ناصيف اليازجى العالم

كتب الشيخ وألّف واختصر وعلّم وأجاد فأفاد فلا يمكننا أن ننفى عنه لقب عالم زمانه . صحيح أنه لم يتخصص بالكهرباء كأديسن ولا نبغ فى الطب كاويس باستور ولا اشتهر بالطبيعيات كإسحق نيوتن ، ولكنه تضلع من العلوم العربية وآخرها المنطق فهو عالم فى عرف المنصفين الذين يزنون أقدار الناس بمعيار الحق والإنصاف[2] .

وإذا شئنا أن نقيس أدباء القرن التاسع عشر بمقياس أدباء القرن العشرين

---

(١) « النبذة الأولى » ص ٥ ، واطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٢) رسالة الأب نقولا أبى هنا فى الشيخ ناصيف اليازجى . مطبعة البوليسين فى حريصا ص ٢ — ٧ .

على ما فيه من مدارس وجامعات منظمة ومطابع ومواصلات سريعة وجرائد ومجلات ، تظلم أولئك الذين بذلوا من الضعف قوّة وجاهدوا فى سبيل طلب العلم كادّين معتمدين على أنفسهم وعلى دراسة ما تصل إليه أيديهم من الكتب والمخطوطات فى زمن كانت سوق العلم فيه راكدة ، لا يطلبها سوى النفر القليل ، ولا يبلغ شأوها إلا بشقّ النفس والدرس المتواصل ، فأدباء القرن التاسع عشر على ما عندهم من تقليد واختصارات وجمع ، يرجع إليهم الفضل فى بعث هذه النهضة العلمية التى نرتع بها الآن ، وننظر فى مخلفات قرائحهم بسهولة ، أو ما يرضيك من اليازجى تلك المختصرات الموجزة المبسّطة فى علوم اللغة كالصرف والنحو والبيان ، وهى الطريق الموصلة إلى دراسة هذا الأدب الملقى بين أيدينا ، نتذوق ما فيه من جمال ونتنكب عما فيه من سخف ودناءة .

وإن أنت طلبت علوم اللغة فى مظانّها ، صعب عليك تفهمها لما فيها من شروح واستطرادات وقلة ترتيب ككتاب سيبويه الذى نراه ممزوجاً بكلّ قول من أقوال اللغة ، يتردّد بين الأبحاث الصرفية والنحوية والأدبية على غير تنظيم .

ولا أظنّك تغمط الفضلَ فتنسى ما سهّل أدباء هذا العصر وعلماؤه ، وما بسّطوا ، ولا أعدو بك بعيداً ، بل أرغب إليك أن تأخذَ معجم « محيط المحيط » للمعلم بطرس البستانى وتنظر فيه ، ثم تأخذ الفيروزبادى أو « تاج العروس » أو « لسان العرب » وتنظر فيها ، فلا أظنك إلا واجداً أو واقعاً على الفرق بينها ، إذا ما أردت البحث عن كلمة من مفردات اللغة ، كبحثك عن كلمة « الأصمع » [1] مثلا فإنك تطلبها فى فصل الصاد باب العين ، بينما ترى صاحب « محيط المحيط » قد سهّل عليك الأمر فقال اطلبها فى الحرف المبدوء بالصاد مادة صَمَع .

أوَلا يرضيك من اليازجى كتاب « عقد الجمان فى علوم البيان » ذلك المختصر الموجز الذى يغنيك عن المطوّلات ، اللهم إلا إذا كنت بحّاثة عالماً ، وأمّا الأديب فلا يحتاج إلى أوفى مما فيه معرفة لأصول علم البيان والعروض .

فأمام هذه الحقيقة لا بد لنا من الاعتراف بفضل كبير أدباء القرن التاسع عشر

---

(١) الأصمع : الصغير الأذن والأنثى صمعاء .

وعلمائه ، الشيخ ناصيف اليازجي ، قادرين فضله مستدرّين على ضريحه الرحمات كفاء حسناته للغة والأدب العربيّ ولأبناء جلدته الذين تأدّبوا بأدبه ، وتفقهوا بما وضعه لهم من الكتب التي سهلت أخذ اللغة أخذاً صحيحاً ، ووفّرت عليهم متاعب جمة وما أحرانا أن نتمثل في الختام بقول سالم بن وابصة :

إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلّة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وحسبنا أن نسهب القول في كتاب واحد من كتبه وهو « نار القرى في شرح جوف الفرا » تناول فيه دقائق النحو مستقصياً ما تواطأ عليه الأئمة النحاة في المذاهب الصحيحة والشرح اللبق ، ولكي تتبين ذلك لا بد لي من أن أنقل إليك شيئاً قليلا من فاتحة الكتاب وقد قال فيها :

« أقول بعد حمد من يستفتحُ بحمده ولاسمه يُسبّحُ
قد جمعت ، في النحو ما سوف ترى ، أرجوزةٌ سميّها جوف الفرا
وهـا أنا في سردها أقولُ والله في توفيقي المسؤولُ

الأرجوزة أفعولة وهو بحر من بحور الشعر ، والفرا حمار الوحش وهو أفضل صيد عند العرب وعلى ذلك قولهم في المثل "كلّ الصيد في جوف الفرا" كناية عن الاكتفاء به كأن من يصطاده قد اصطاد كلّ صيد . وهذا هو الوجه في تسمية هذه الأرجوزة لأنها متضمنة أكثر المسائل المتفرقة في كتب النحاة . فكأن الواقف عليها قد وقف على كلّ كتاب في هذا الفنّ » .

وقد جرى في نظمها على نمط ابن مالك وشرحها على طراز ابن عقيل ، وإن تأملنا كلمة الشيخ في بدء المقدمة حيث يقول « كلمة النحاة قول مفرد » في حين نرى ابن مالك يقول « كلامنا لفظٌ مفيد كاستقم » عرفنا أن الشيخ بقوله « كلمة النحاة » أراد أن يدلّل على أن الكلمة عند النحاة فما أراد أن يحسب نفسه منهم تواضعاً ، أو لأن عصره بعيد عن ذلك الذي دوّنت فيه اللغة ، وهو قد أخذ عن الأئمة المشهورين في هذا الفنّ كسيبويه صاحب « الكتاب » والصبان وشرح الأشموني عليه وابن مالك وغيرهم . وما أحسب أن ابن مالك يفوق جوف الفرا بشيء أو يمتاز عنه . وإثباتاً لذلك أقدّم نموذجاً مختصراً من الكتابين نظماً ونثراً :

قال الشيخ ناصيف فى أرجوزته :

كلمـــة النحاة قول مفرد
باسم وفعـــل وبحرفٍ ترد
وحيث ما أفاد ما يؤلّف
منهـــا فذاك بالكلام يعرف

أى أن الكلمة فى اصطلاح النحاة قول مفرد أى لفظ يدلّ على معنى مفرد كرجل وهى تنحصر فى الاسم لأن ما وضعت له ينحصر فى الذات وهى الاسم والحدث وهو الفعل والرابط بينهما وهو الحرف وأمّا ما يؤلّف منها فمتى أفاد الإفادة المعتبرة وهى التامّة التى يحسن السكوت عليها نحو : العلم نافع ، فهو الكلام وهو المعتبر عند النحاة . واعلم أن القول أخصّ من اللفظ ، لأن اللفظ يشمل المستعمل كرجل والمهمل كجسق والقول يختص بالمستعمل ولذلك عرّفنا الكلمة به[1] .

قال ابن مالك فى ألفيته :

كلامنا لفظ مفيـــد كاستقم
واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحـــده كلمة والقول عم

وكلمة بها كلامٌ قد يؤم

الكلام المصطلح عليه عند النحاة عبارة عن اللفظ المفيد ، فائدة يحسن السكوت عليها ، فاللفظ يشمل الكلام والكلمة والكلم ، يشمل المهمل كديز والمستعمل كعمرو ، والمفيد أخرج المهمل . وفائدة يحسن السكوت عليها أخرج الكلمة وبعض الكلم وهو ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر ، ولم يحسن السكوت عليه نحو : إن قام زيد ، ولا يتركّب الكلام إلا من اسمين نحو : زيدٌ قائم أو من فعل واسم كقام زيد وكقول المصنف كاستقم فإنه كلام مركّب من فعل أمر وفاعل مستتر . . . . وذكر المصنف أن القول يعمّ الجميع والمراد أنه يقع على الكلام أنه قول ويقع أيضاً على الكلمة أنه قول وزعم بعضهم أن الأصل استعماله فى المفرد[2] .

نرى من هذا أن نظم الإمام ابن مالك وشرح ابن عقيل لا يفضلان جوف الفرا بشىء إلا بالأسبقية . ونلاحظ أن الشيخ ناصيفاً قد جرى فى تأليف «نار القرى» على طريقة العالم الخبير الضابط ، ولدى مقابلة الكتابين ببعضهما

---

(١) « نار القرى» ص ٤ — ٥ المطبعة الأدبية بيروت .

(٢) شرح ابن عقيل على ابن مالك ص ٢ — ٣ المطبعة العثمانية بصيدا .

نرى أن الشيخ ناصيفاً قد أثبت أصدق المذاهب وأطرح الآراء المرجوحة . ومن الذين انتقدوا الشيخ اليازجي ، الشيخ يوسف الأسير ، فألف كتاباً أسماه « كتاب إرشاد الورى فى تخطئة جوف الفرا » فنقد المقدمة واسم الكتاب بصفحات . أكتفى بإيراد فقرة ومنها نحكم على هذا الرد « كما قيل الكتاب يعرف بعنوانه ولكن نقت الضفادع وسكتت البلابل السواجع ، فوا أسفاه على العلم وأهله فقد غلبهم الجاهل بجهله ، وقد هشم ابن هشام وحقل ابن عقيل فى بلاد الشام حين ظهر جوف الفرا وظهرت منه روائح بلا مرا ، والأمر لمن له الأمر[1] » ثم يمضى بنقد الكتاب نقداً غير علمى فما رأيت الشيخ الأسير يقصد فى كتابه إلى إظهار الحقيقة بل يريد أن ينال من الشيخ ناصيف كقوله مثلا : « أقول كان صوابه أن يبدل المستعمل بالموضوع لأن الصحيح أن الاستعمال ليس بشرط لتسمية اللفظ الموضوع قولا كما هو واضح وتكلم عليه كثير من النحاة ، وإن وقع فى عبارة بعضهم ، على أنه كالدجاجة العوراء ينقد الزؤانة ، ويدع القمحة »[2] وأنا لا أحيلك إلا على ما نقلت لك من شرح الإمام ابن عقيل لتتحير القول بنفسك وتحكم » ، وجد جولات كثيرة يطلعنا الشيخ الأسير على ما نظمه متحدياً الشيخ ناصيفاً وسأجعل ما نظمه بإزاء ما نظم اليازجي تاركاً الحكم لك :

قال الشيخ يوسف الأسير :

وبالعلامات الأصول المفردا
أعرب كذا المضارع المجردا
وجمع تكثير وما بالألف
والتاء جمعيه بذى اكتفِ
وما سواها بالفروع يعرب
وقيل كل بالأصول معرب[3]

قال الشيخ ناصيف اليازجي :

بالحركات مفرداً أعرب وما
يجمع دون ذى ذكور سلما
ومعرب الفعل الذى يجرّد
عن مضمر بادٍ إليه يسندُ
وما سواها أعربته الأحـــرف
وذاك بالإعراب فرع يعرف[4]

---

(١) كتاب « إرشاد الورى فى تخطئة جوف الفرا » ص ٤ ، مطبعة الجوائب الآستانة سنة ١٢٢٠ هـ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩ .
(٣) « إرشاد الورى » ص ٢٣ .
(٤) « نار القرى » ص ٢٣ .

نقلت لك شيئاً مما تقدم على سبيل التمثيل غير راغب فى أن أتعرض لكتاب « إرشاد الورى » برمته لما فى ذلك من التطويل وخشية الملل من موضوع جافّ والأخذ به يحتاج إلى دراسة خاصّة ، وسبيلى الذى إليه قصدت هو دراسة الشيخ ناصيف دون غيره ، وإنما تعرّضت إلى نقل شىء من انتقاد الشيخ الأسير لليازجى لنوضح صورة عن النقد فى القرن التاسع عشر .

ولكن الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسى يقول فى اليازجى :

كما أفاد الحكم فى ذا الدنا نحوى هذا العصر فرد الزمان
شاعر قطر الشام من أصبحت لـــه أيادٍ ببيـــان المعان

ومنهـــا :

صرفىّ فضل ما نُحى نحوه له بنقد الشعر أمسى يدان[1]

وبعد هذا لا تسألنى أن أتحدث إليك عن كتاب « عقد الجمان » و « نقطة الدائرة » ولا عن «قطب الصناعة » فى المنطق خشية الملل من مواضيع قد تراها جافة ولا عن معرفته الطبّ على مذهب ابن سينا وقد أخذه عن والده ، وألّف فيه رسالة « الحجر الكريم فى الطبّ القديم » وقد أجلها العلماء ونشرها الدكتوران بوست والبارودى فى مجلتهما الطبيب[2] كما ألمعنا إلى ذلك .

## ٣ ـ منزلة ناصيف اليازجى

علم من أعلام البيان وسيّد من سادة العلم وأركان النهضة العلمية فى لبنان وهو أشهر من أن يعرّف لما كان له من القدح المعلّى فى اللغة والشعر والأدب ، وهو أوّل من راجت كتبه اللغوية فى المدارس العربية من النصارى[3] ؛ انقادت له اللغة العربية فتمكن منها وتمسك بجذورها ، فما شردت عنه خاطرة ولا ندّت

---

(١) « فاكهة الندماء » .
(٢) مجلة « الطبيب » العدد ١٤ سنة ١٩٠٢ ص ١٢٥ و ١٥١ .
(٣) « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٢٥٩ طبعة مصر سنة ١٩١٤ و « تاريخ الصحافة العربية » للكونت دى طرازى حـ ١ ص ٨٤ طبعة بيروت .

عنه بادرة إلا أخذ بتلابيبها وتمرّس بأسرار الفصحى وسبر غورها ووقف على حقائقها ودقائقها واحتذى حذو أئمتها الأعلام ، فما قصّر عنهم بشيء . إن لم نقل بذّهم فى كثير من النواحى التى قلما تأتّت لهم من حيث الاختصار والترتيب بلغة جامعة مانعة ، فتحدّى أمتن منشئ العرب بإنشائهم ، وعارض أفخم شعرائهم مقتفياً أنبغ علمائهم فى علومهم المختلفة من صرف ونحو وبيان وبديع ومنطق وطبّ وقد حصّل معارفه هذه على نفسه حتى غدا أول نابغة مسيحى فى القرن التاسع عشر للميلاد [١] تجاوب صدى اسمه فى الأقطار العربية فراسله كبار الأدباء وعيون العلماء ونظروا إليه نظرة اعتبار واحترام ، فكان زهرة عبقة تضوّع أريجها فى الأنحاء العربية . فكان أكبر عامل فى النهضة الحديثة[٢] ، وهو بشهادة أبناء جيله « أنه كان من نوادر الدهر وأفراد رجال العصر الذين باهت بهم الأيام ونشرت مآثرهم بألسنة الأقلام »[٣] فهو فى طليعة الذين بعثوا اللغة الفصحى بعد هجوع طويل وأظهروا محاسنها كما يتضح لمن طالع كتبه وخبرها وتخرّج عليه . فكان حجة فى اللغة والأدب .

طبع على الشاعرية ، وله فى شعره أسلوب سهل تحدّى به طبقة الشعراء كأبى تمام والبحترى والمتنبى الذى ملك عليه لبّه فأحبّه حبًّا شديداً واستظهره وشرح كثيراً من غوامضه ، وجرى كثير مما نظمه مجرى الأمثال لشيوع مؤلفاته بين أيدى الطلاب ولا سيما فى لبنان وسوريا ، وقد مضى دهر ليس بين الأدباء من لا يحفظ للشيخ قصيدة أو مقامة[٤] .

هذا هو الرجل الذى قصصت عليك خبراً من خبره ، مظهراً مآثره ، ناشراً صفحة طويت من صفحات كبار أدباء القرن التاسع عشر .

---

(١) « الغرر التاريخية فى الأسر اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف .

(٢) « فاكهة الندماء فى مراسلة الأدباء » . طبعة صادر . بيروت ١٩٣٢ و « مجلة الآثار » السنة الثانية ١٩١٢ ص ٢١٣ .

(٣) مجلة « النجاح » . بيروت سنة ١٨٧١ ص ١٩٠ .

(٤) « تاريخ آداب اللغة العربية » . لزيدان . طبعة مصر ، ج ٤ ص ٢٦٠ .